تنبّه القدماء لذلك فسَلَكوه في المذهب الذي دعوا أصحابه « عبيد الشّعر » من أمثال أبيه ، و أوس بن حَجَر ، ثم الحُطَيئة من بعده . غير أن هناك شعراً جيّداً كثيراً قاله الشُّعراء المعاصرون لكعب ممن مدحوا الرّسول ﷺ ، بل كانوا من شعرائه المُقَرَّبين من أمثال حسان بن ثابت ، وكَعْب بن مالك ، وغيرهما .

وقد يميّز هذه القصيدة أنها تنتمي إلى ما سُمّي في الأدب العربي بفَنّ الاعتذاريّات ، وهو فنٌّ يحتاج إلى مقدرة خاصّة يجمع بها الشّاعر بين الحِجاج المُقْنع المستند إلى المنطق والاستثارة العاطفيّة . وقد برع في ذلك النّابغة الذُّبْياني الذي اشتهرت قصائده الاعتذاريّة التي تَوجّه بها إلى النُّعمان ابن المُنْذِر ، وهي قصائدُ تأثّر بها وتأثّرها كعب بن زهير ، حتى إنه نقل ألفاظ بعض أبياتها ، كما في قوله : « نُبِّئْتُ أن رسول الله أوعدني » الذي يذكّرنا بقول النابغة : « نبئت أن أبا قابوسَ أوعدني » . غير أننا نعود فنذكر أن كعباً لم يَكُن الوحيد الذي أتى إلى الرّسول تائباً عمّا أسلفه من قبيح القول ، فقد شاركَهُ في ذلك شعراء عرضنا لهم من قبلُ ، مثل أبي سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن الزِّبَعْرَى ، وأنَس بن زَنيم ، غير أن التّاريخ لم يُخَلّد ذِكْر أحدٍ من هؤلاء كما خَلّدَ ذكر كعب .

وأما الشّعور الدّيني في القصيدة ، فعلينا أن نعترف بأنه ليس من القوّة ، بحيث يؤهّلها لما بلغته من شهرة ، فالشّاعر حديثُ عَهْدٍ بالإسلام ، بل هو لم يُسْلم إلا حفاظاً على حياته ، وقد اهتمّ بتصوير ما تَملّكه من مشاعر الخوف ، لما كان يتوقّعه من عقوبة ؛ أكثر مما اهتمّ بالتّعبير عن إيمانه بالدّين الجديد . وأما مديحه للرّسول ، فإنه لا يختلف عما لو كان متَوَجّهاً به إلى سيد من سادات الجاهليّة . وهناك من شعر الصّحابة ما هو أكثر حرارةً وإخلاصاً من قصيدة كعب ، فهذه ناحية لا نرى فيها للشّاعر تميُّزاً خاصا يسمو بها على غيره .